أسبوع فى تاريخ الأزهر

للأستاذ محمد محمد المدنى

ليس الأزهر جامعة من هذه الجامعات الحديثة التى عاصرت جيلاً أو جيلين من الزمان ؛ وليس الأزهر وليد ثقافة واحدة لم تبلها الأحداث ، ولم تصقلها التجارب ، ولم تمحصها العقول والأيام ...

إنما الأزهر تاريخ حافل بأمجد الذكريات ، وسفر ممتلئ بأروع الآثار ؛ إنما الأزهر عمر ثقافة عالية فى اللغة والفقه والتشريع ، ومثال من أمثلة التدرج الهادئ الرزين فى العلم والتفكير والنضوج

أليس من العجيب مع هذا أن يقال : « أسبوع فى تاريخ الأزهر » وهل تحسب الأسابيع والشهور فى تاريخ طويل ممدود لا يحسب بالعشرات من السنين ، وإنما يعد بالمئين ؟

بلى إنه لعجيب ، ولكنه مع ذلك أسبوع ، وسيظل أسبوعاً مصروفاً متميزاً لا تغمره هذه المئات من السنين !

ذلك هو الأسبوع الذى ابتدأت فيه مناقشة الرسائل التى قدمها لأول مرة الطلاب المتخرجون من كلية الشريعة لنيل شهادة « الأستاذية » فى الشريعة الإسلامية

احتفل الأزهر لهذه المناسبة احتفالاً ظاهراً لا فيما أعده لها من مكان منظم منسق ، ولا فيما وضعه لها من نظام محكم دقيق ، فإن الأزهر يسير فى أمثال هذا على طبيعته الساذجة التى لا تعرف الدعاوة ولا تحب الإعلان

ولكنه كان احتفالاً ظاهراً لما احتشد له من علماء وطلاب ، ولما شهده من رجال الفكر وأهل العلم ، ولما ضم فى نسق واحد بين ألوان مختلفة من التفكير ، وعناصر متباينة فى وجهات النظر

جمع هذا الحفل بين العالم الكبير الذى عاش طول حياته فى ظل ثقافة محافظة ترى التجديد خروجاً على الدين ، وافتياتاً على السلف الصالح من علماء المسلمين ، وترى الاجتهاد والنظر مزلقة من مزالق الهوى والضلال ، وبين العالم الشاب الذى يرى الحياة أمام عينيه قد اصطبغت بصبغة غير التى يصبغها هؤلاء الآباء ، واتسمت بطابع غير هذا الطابع الذى ألفوا أن يروها متسمة به ، والذى يرى من حقه بل من واجبه ألا يعيش بعقله وروحه فى عصور عفى عليها القدم ، وأخفى عليها الزمن ، بينما يعيش

الدهور أنه جزء من كلٍّ عظيم . . .

وهنا قفز البرغوث قفزات لفتت له الأنظار ، فقال :

— حدثونى — نشدتكم الله — ماذا حدا بالإنسان أن يتبجح فيزعم لنفسه ما زعم ؟

فأجابت الفراشة المتحمسة :

— أغراه بذلك ما له من علم وأخلاق ! وما يدرى أنه بعلمه يكمل النقص فى غريزته وفطرته ، وأن أخلاقه حين تحلم بالمثل الأعلى فهى فى أحلامها دون ما يسود عمالك النمل والنحل من أخلاق ! إن الحيوان لا يعرف العرى والجوع ، وأما الإنسان بكل ماله من علم وأخلاق ... آه ! وددت لو خرج هذا الكاتب البليغ من لفائفه « الصوفية » فيخوض فى برد الليل ساعة فيرى بنى جنسه قد ألفاهم البؤس فى العراء . حرمتهم الطبيعة الغراء اتكالاً على علم الإنسان وأخلاقه ، فعجز العلم والأخلاق أن يهيئا لهؤلاء الأشقياء وطاء أو غطاء ! وددت لو خرج الكاتب البليغ لحظة من « تصوفه » الذى يدفئه بين جدران داره وفوق حشايا مخدعه ليرى كم من بطون قومه قد باتت خاوية على الطوى ...

ولكنه لن يبارح هذا الغشاء « الصوفى » ليرى الحقيقة « عارية » حتى يخزه فى رقاده واخز

فقال البرغوث وهو يثب فى جذل طروب :

— لكم منى هذا الصنيع . والله لأُضنَّنَّ مضجعه هذا المساء ، لعل السهاد أن يحفزه على التفكير فى هؤلاء الذين ينبتون القمح حتى يملأ الأهراء ثم لا يأكلون ، والذين يزرعون القطن حتى تغص به المخازن ثم لا يكتسون ... والله لأُورقنه هذا المساء لعله يعيد التفكير فى هذا الإنسان الذى يقتل بعضه بعضاً بأدوات من العلم ، ويهلك بعضه بعضاً بنزوات من الأخلاق

... قال ذلك البرغوث وانصرف ، وكان الليل قد انتصف ، فأطفأت سراجى وأويت إلى مخدعى ، وبى إشفاق على صديقى خلاف من هذا البرغوث اللعين !

* * *

خلافُ يا صديقى ، لا تسرف ! أفيكون هذا الإنسان الذى جارت به السبيل وحار الدليل جديراً منك بالإيمان ؟

زكى نجيب محمود

بجسمه وعمله فى عصر العلم ، والتفكير الحر ، والتجديد النافع !

جمع هذا الحفل بين العالم الذى ظل عمره فى أحضان الأزهر وبين ربوعه ، وبين العالم الذى عاش دهراً فى أوربا فرأى ما لم يكن قد رأى ، وعلم ما لم يكن قد علم ، فاشتجر فى نفسه القديم مع الحديث ، وامتزج فى ثقافته الشرق بالغرب

وكنت ترى إلى جانب هؤلاء وأولئك طلاباً أزهريين يحرصون فى لهف وشوق ، وإلحاح وإصرار على شهود هذا الحفل ، والاستماع إلى نقاش فيه وجدال بين طالب منهم ، وأعلام من أساتذتهم على أساس الحجة والبرهان ، والبحث الحر ، والنهج العلمى المستقيم

وكنت ترى فى هذا المحيط الأزهرى الصاخب زواراً من غير الأزهر ، جاءوا ليشهدوا هذه المناقشة العلمية التاريخية التى تدور فى الأزهر لأول مرة والتى يرأسها رجل من أنفذ المفكرين ، وكبار المصلحين ، وهبه الله عقلاً ممتازاً وفكراً رشيداً وقلباً جريئاً

ودارت المناقشة ، وتجلت فيها حرية الرأى سافرة ليس من دونها حجاب ، سليمة لم تفسدها مداراة ولا مصانعة ولا تخوف . وانطلق العلم فيها على سجيته لا يتعثر فى تركيب من تراكيب المؤلفين ، أو لفظ من ألفاظ المصنفين ، وسمعنا مبادئ لا نسدو الحقيقة إذا عددناها جديدة فى جو الأزهر ، أو حسبناها توجيهاً صالحاً للتفكير العلمى بين العلماء والطلاب ، ومبدأ لتحول دراسى خطير فى حياة هذا المعهد العظيم

وكان من المبادئ الجليلة التى سمعناها ما قرره فضيلة الأستاذ الإمام المراغى من أن الدين فى كتاب الله غير الفقه ، وأن من الإسراف فى التعبير أن يقال عن الأحكام التى استنبطها الفقهاء وفرعوا عليها ، واختلفوا فيها ، وتمسكوا بها حيناً ، ورجعوا عنها حيناً : إنها أحكام الدين ، وأن من أنكرها فقد أنكر شيئاً من الدين ، فإنما الدين هو الشريعة التى أوصى الله بها إلى الأنبياء جميعاً ؛ أما القوانين المنظمة للتعامل والمحققة للعدل والدافعة للحرج فهى آراء للفقهاء مستمدة من أصولها الشرعية تختلف باختلاف العصور والاستعدادات ، وتبعاً لاختلاف الأمم ومقتضيات الحياة فيها ، وتبعاً لاختلاف البيئات والظروف . ولو جاز أن يكون الدين هو الفقه مع ما ترى من اختلاف الفقهاء بعضهم مع بعض ، وتفنيد كل آراء مخالفيه ، وعدها باطلة ، لحقت علينا كلمة الله : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء »

وهذا معنى قد جلاه الأستاذ الأكبر فى هذه المناسبة ، وكان قد عرض له برفق فى أحد دروسه الدينية عند تفسير قوله تعالى « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه »

وكان من المبادئ التى قررها فضيلة الأستاذ الأكبر أيضاً مسألة تأثير العرف فى المعاملات ، وقد ضرب لذلك مثلاً بأن عرفنا الحاضر قد أهدر المعايير والأوزان فى التعامل بالذهب والفضة ، فأصبحنا نصرف الذهب بالفضة من غير نظر إلى الوزن ولكن على أساس العد ، وكذلك الأمر فى صرف الفضة بالفضة

وكان من المبادئ التى قررها فضيلته أيضاً التفريق بين ما حرم لنفسه وما حرم لغيره ، وما ينبنى على هذا التفريق من جواز إباحة الأخير عند الحاجة

وسمعنا أيضاً مبدأ من المبادئ الهامة فيما يتصل بالمروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقوم على أساس التفريق بين ما يقرره النبى صلى الله عليه وسلم على أنه مبلغ عن الله ، وما يقرره على أنه أمام للمسلمين ، وما يقرره على أنه قائد للجيش فى زمن الحرب ، وما يقرره على أنه قاض ... الخ ، وأن بعض ذلك يكون ملزماً للمسلمين فى جميع عصورهم ، وبعضه لا يكون ملزماً

سمعنا ذلك كله ، ورأينا آثاره بين الحاضرين ، وسمعنا غيره من أعضاء الهيئة العلمية التى كانت تناقش الرسائل ، ثم تحرينا أن نعرف آثاره فى أحاديث العلماء والطلاب ، وتحرينا أن نعرف آثاره فى الفصول الدراسية ، فإذا الجميع طوال هذا الأسبوع مشغولون بهذه المبادئ يتناقش فيها الأستاذ مع الأستاذ ، والطالب مع الطالب ، ويرغب الطلبة إلى أساتذتهم فى تفصيل مجملها ، وتوضيح مشكلها ، والتمثيل لها ، والتطبيق عليها

ولعل من الظواهر السارة التى تستحق التسجيل أننا رأينا لأول مرة احتياطاً فى التعليق ، وحرصاً عند التعقيب ، وزهداً فى وصف الناس بالخروج أو المروق ، وانصرافاً إلى الفكرة من حيث هى فكرة ، لا باعتبارها قولاً يختفى وراءه غرضاً من الأغراض

ونحن نسجل هذه الظاهرة الهامة فى تاريخ الأزهر مغتبطين